

بيد أن الباحث: يُرجع هذه اللوازم كلها لأمرين رئيسين يجمعان ما سواهما، وهما: «الصبر والكرم»:

أما الصبر: فهو رداء الشجاع ودثاره؛ فلولا ما نهض للقاء عدو، ولا استطاع مجاهدة نفسه لحملها على ما تأباه من قول أو فعل؛ فلا غنى للمرء عن الصبر في أداء ما وجب عليه من حق، وفي مجاهدة هواه للجهر بالحق، وإقامة القسط، والشهادة بالعدل ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين؛ فكل ذلك إنما يتم لمن شجع قلبه وتدرع بالصبر؛ الذي هو زاد الشجاع في حربه وسلمه؛ ولعل طالوت وجنوده لما أدركوا هذا المعنى تضرعوا إلى الله (ﷻ) أن يفرغ عليهم صبراً؛ لتقوى قلوبهم، وتثبت أقدامهم عند لقاء جالوت وجنوده؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

وعن ذلك الارتباط الوثيق بين الشجاعة والصبر يقول الطرطوشي (رحمته الله): «بالصبر يُدْفَع هوى النفس الأمارة، وتُكْتَم الأسرار، وتُقْتَحَم الصعاب، ويُتَحَمَلُ إيذاء الجلساء وجفاء الأصحاب، وتُتَحَمَل المكاره، وتُنْقَذُ كل عزيمة يوجبها الحزم والعدل»^(٢).

وأما الكرم: فلأن بذل النفس رخيصة وتعريضها لمواطن الخطر والهلكة في سبيل الحق والخير، يستلزم ذلك الكرم؛ بل إنه أعلى درجات الكرم الذي به يتميز الرجال في مواطن الشجاعة عن أشباه الرجال^(٣)؛ ففي الوقت الذي نجد فيه الشجاع وجود بروحه نجد البخيل يظن بماله؛ ومن ضنَّ بماله، فكيف وجود بنفسه.

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٠.

(٢) الطرطوشي، سراج الملوك، ٢/٦٦٨، ٦٦٩ بتصرف وتلخيص.

(٣) يقول الكفوي (رحمته الله): «الكرم إن كان بمال فهو جود، وإن كان بكف ضرر مع القدرة فهو

عفو، وإن كان ببذل النفس فهو شجاعة» الكليات، ٥٣، ٦٥.

ولعله لذلك التلازم بين «الشجاعة والكرم»: اقترن الأمر في القرآن الكريم بالجهد بالمال والنفس في سبيل الله تعالى من ناحية؛ فقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).

كما اقترن الوعيد لمن تولى بترك الجهاد، ومن تولى بترك الإنفاق في سبيل الله، أن يبذل الله تعالى عنهما من يقوم بهذين الأمرين - أعني الجهاد والإنفاق - من ناحية أخرى^(٢)، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

وفي قوله سبحانه: ﴿هَآئِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^(٤).

ففي الآية الأولى وعيد لمن تركوا النفر إلى الجهاد أن يعذبهم الله في العاجلة ويبذل نبيّه قوماً غيرهم ينفرون إذا استنّفروا، ويجيبونه إذا دُعوا، ويطيعون الله ورسوله^(٥).

وفي الثانية وعيد لمن حرموا أنفسهم الأجر والثواب ببخلهم وامتناعهم عن الإنفاق في الجهاد وطرق الخير، أن يستبدل الله قوماً آخرين غيرهم أطوع لله منهم^(٦).

(١) سورة التوبة: آية ٤١.

(٢) ابن القيم، الاستقامة، ٢/٢٦٩، بتصرف وتلخيص، وتقديم وتأخير.

(٣) سورة التوبة: آية ٣٩.

(٤) سورة محمد: آية ٨.

(٥) الطبري، جامع البيان، ١٤/٢٥٤، بتصرف وتلخيص، وإن كانت الآية في النفر إلى الروم

خاصة، إلا أن العبرة بعموم اللفظ.

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٦/٢٣٦، بتصرف وتلخيص.

وأما أهمية الشجاعة: فتستبين للقارئ الكريم بالتعرف على عظيم أثرها في إقامة التوحيد، ونصرة الحق، ودحض الباطل، من ناحية، وإدراك خطورة ضدها أعني الجبن الأخلاقي من ناحية أخرى:

أما أثرها في إقامة التوحيد، ونصرة الحق: فذلك يرقى إلى درجة الضرورة اللازمة لما ينبثق عنها من قيم تخدم كلية الدين؛ وليتأمل معي القارئ الكريم قصة مؤمن آل فرعون، ودعوة الأنبياء أقوامهم وجهرهم بالحق لا يخافون في الله لومة لائم على قلة أتباعهم وازدراء أقوامهم لهم- ونحو ذلك مما سيأتي مفصلاً في موضعه من المبحث الثاني في هذا البحث بمشيئة الله تعالى- ليدرك القارئ الكريم أن ذلك ما كان ليتحصل دون أن يعتصم أصحابه بخلق الشجاعة الأدبية.

وأما خطورة ضدها أعني الجبن الأخلاقي: أو الخوف غير المنطقي المعداد من الرذائل الأخلاقية عند علماء الأخلاق؛ فلما يورثه من ذلة وانحطاط قدر صاحبه؛ وحسب الجبان شيئاً أن الله تعالى قد حذر المؤمنين من خروجه معهم للقتال؛ لئلا يسري رعب قلبه إليهم؛ فيصدع صفوفهم، فقال سبحانه في شأن ابن أبي ومن معه من المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾^(١)، يعني لو خرجوا معكم للقتال ما زادوكم إلا فساداً وشرّاً؛ بإيقاع الاختلاف والفرقة بينكم؛ لأنهم جبناء مخذولون^(٢).

أقول: لما كان الجبن الأخلاقي معدوداً من الرذائل الأخلاقية لجنايته على الفرد والمجتمع، كانت الشجاعة - المقابلة لهذه الصفة الذميمة - معدودة عندهم من المحامد الخلقية؛ لما تورثه من علو القدر وامتلاك مفاتيح النصر، أيّ كان

(١) سورة التوبة: آية ٤٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، ٢٧٨/١٤، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٦٠/٤، الشوكاني، فتح القدير، ٥٧٥/١.

ميدان هذا النصر من حرب أو سياسة أو اجتماع، أو غيرها من معالي الأمور التي لا تفتح إلا بمفتاح الشجاعة^(١).

ومن ثم أطنب العلماء في ذكرها بياناً وترغيباً وترهيباً؛ وكانت عندهم «عماد الفضائل كلها، فمن فقدوها لم تكمل فيه فضيلة»^(٢).

فالأخلاق الاجتماعية: «كالأمانة والسماحة والعفو والعدل والتمسك بالحق»، كلها ذات صلة وشيجة بالشجاعة الأدبية.

والأخلاق الفردية: «كالصبر والصدق والكرم والعفة والتواضع، والشهامة، والنجدة» كلها من لوازم الشجاعة كذلك؛ فهي إذاً تجمع محاسن الأخلاق كلها^(٣).

ولعله لذلك: قرر ابن تيمية (رحمه الله): «أن صلاح بني آدم في دينهم ودنياهم لا يتم إلا بالشجاعة والكرم»^(٤)، كما أكد السعدي (رحمه الله) ذلك المعنى بقوله: «إن خير الدنيا والآخرة يترتب عليها هي والصبر»^(٥).

أما شيخنا العلامة الدكتور إبراهيم خليفة (رحمه الله) فقد أوقف عليها الكثير من أصول العقائد والعبادات؛ فقال: «إن الكثير من أصول العقائد والأخلاق وفروعها تتوقف عليها»^(٦).

وإن كانت تلك الأهمية - المشار إليها آنفاً - تتسحب على الشجاعة بنوعيتها الرئيسيين - أعني الأدبية والحربية - إلا أن الطرطوشي (رحمه الله) قد عدَّ الشجاعة

(١) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، ج ٢/٢٠٨ (بتصرف وتلخيص شديد)

(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١/٣١٠.

(٣) ماجد عبدالله العصيمي، الأخلاق العملية في القرآن، ص ٤٠، وما بعدها "بتصرف وتلخيص".

(٤) ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ٧٤.

(٥) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٢٥.

(٦) إبراهيم خليفة، مرجع سابق، ص ٩٣.

الأدبية هي الشجاعة الحقيقية؛ وجعل عمادها في صبر الإنسان على أداء الحقوق الواجبة عليه، وعلى سماعها وإلقائها إليه، وأن يكون غالباً لهواه، مالكا لشهواته، ملتزماً للفضائل جهده، عاملاً في ذلك على الحقيقة التي لا يصرفه عنها حياة ولا موت.

أما الجَد عند الضرب، والصبر على التعب، وغيرها من أمارات الشجاعة الجسدية؛ فقد عدها مما قد يشترك فيها المؤمن وغيره؛ وأن الحمير قد تفوقهما في ذلك^(١).

وأما ثمرتها: فمنها مغنوي، ومنها مادي:

المغنوي: كانشراح الصدر، وعزة النفس، وعظم الهمة، وإيثار معالي الأخلاق، لما عنده من الصبر عليها، وتحمل الآلام، ومقاومة الأهوال في سبيلها^(٢) في الوقت الذي يكون فيه الجبان أضيق الناس صدرًا وأحصرهم قلباً، لا سرور له ولا لذة إلا من جنس ما يكون للحيوان البهيمي^(٣).

والمادي: بأن يكون مرهوب الجانب، بعيداً عن الأذى؛ فالأمر كما قالت العرب قديماً: «الشجاعة وقاية والجبن مقتلة» فكأن جبن الجبان صار سلاحاً لعدوه يحاربه به، ولولا جبنه لما تجرأ عدوه عليه^(٤).

وأما وسائل اكتسابها^(٥): فيمكن إيجازها فيما يلي:

(١) الطرطوشي، سراج الملوك، ٦٦٨/٢-٦٦٧٠ "بتصرف وتلخيص وتقديم وتأخير".

(٢) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص ١٨.

(٣) ابن القيم، الفروسية، ص ٤٩١.

(٤) ابن القيم، المرجع السابق، ص ٤٩١. بتصرف وتلخيص.

(٥) على أن الشجاعة منها فطري، ومنها مكتسب كسائر الأخلاق.

١ - الإيمان بالله تعالى: وقوة التوكل عليه، وكمال الثقة به سبحانه، مع علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فذلكم هو عماد الشجاعة وجذوة وقودها؛ والقاسم المشترك بين النماذج القرآنية التي صورت لنا الشجاعة في أسمى معانيها وأعلى درجاتها، ولعل جذوة الإيمان التي أنارت قلب سحرة فرعون؛ فجعلتهم يجهرون بالحق غير ملتفتين لما ينالهم من ضرر أو أذى قائلين لفرعون في شجاعة المؤمن الواثق بربه سبحانه: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(١) خير شاهد على ما نقول.

٢ - تأييد الله تعالى وتثبيتته لعبده، وربطه على قلبه: يقول تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)؛ فلولا تثبيت الله تعالى لأم موسى (عليه السلام) وربطه على قلبها لأخبرتهم بقصته وأنه ابنها؛ فهي التي كاد عقلها يذهب لما دهمها من شدة الجزع على ولدها، وصار قلبها فارغا ممن كل شيء إلا من ذكره؛ لكنه تثبيت الله تعالى لها، وربطه على قلبها^(٣).

وعن أهم أسباب الشجاعة الأدبية والحربية يقول ربنا (ﷺ): ﴿وَلْيَرْبِطْ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(٤) فالربط على القلوب يكون بالصبر والإقدام فيخص شجاعة الباطن، وتثبيت الأقدام يخص شجاعة الظاهر^(٥)، وفي ذلك إشارة إلى أن تأييد الله تعالى وتثبيتته لعبده هو مداد الشجاعة الأدبية والجسدية.

(١) سورة طه: آية ٧٢.

(٢) سورة القصص: آية ١٠.

(٣) الطبري، مرجع سابق، ٥٢٧/٩، القاسمي، محاسن التأويل، ٤٦٩٨/١٣.

(٤) سورة الأنفال: آية ١١.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، ٢٣/٤.

٣ - الإكثار من ذكر الله تعالى والالتجاء إليه وحده سبحانه: فقد علّم الله تعالى عباده المؤمنين آداب لقاء العدو، وطريق الشجاعة عند مواجهته؛ فأمرهم بالثبات والصبر، وعدم الفرار أو الجبن، مع الإكثار من ذكر الله تعالى في تلك الحال رجاء أن يدركوا ما يطلبون من النصر؛ فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله تعالى من أعظم أسباب النصر^(١)؛ وفي ذلك يقول ربنا (ﷻ): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾.^(٢)

وبتأمل الوسائل - المذكورة سابقاً - نجدها كلها ترجع إلى الإيمان بالله (ﷻ) مما يجعلنا نقول: إن الإيمان بالله تعالى، والتوكل الحق عليه وحده سبحانه هو مداد الشجاعة الأدبية وزادها وجذوة وقودها؛ وأن انطماس البصيرة وانعدام الإيمان، هو زاد الجبن ووقود الهلع والخوف؛ فلا يجبن خوفاً على رزق إلا من غاب عنه أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولا يجبن خوفاً من ضرٍّ إلا من غاب عنه أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لن يضروه إلا بما كتب عليه، ولا يخاف البشر أكثر من الله للحفاظ على مصلحة دنيوية إلا من انخرمت عنده عقيدة الإيمان بالقدر.

ولعله لذلك كان الأمر بالتوكل على الله تعالى سبيلاً لتقوية قلوب بني إسرائيل ليمتثلوا ما أمروا به من دخول القرية المقدسة التي امتنعوا عن دخولها خوفاً وجبناً، قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.^(٣)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، ٧١/٤، السعدي، مرجع سابق، ٦٢٢/٣.

(٢) سورة الأنفال: آية ٤٥.

(٣) سورة المائدة: الآيتان: ٢٣، ٢٢.

فما قالوا لموسى إن في القرية المأمور دخولها قوماً شديدي القوة والشجاعة، وأنهم لن يدخلوها حتى يخرج منها أولئك إلا بسبب جبنهم وقلة يقينهم، إذ لو كانوا مؤمنين حقاً لعلموا أن القوي من كان الله معه بنصره وتأييده، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وهنا برز منهم رجلان مؤمنان يشجعونهم ويستنهضون همهم على قتال عدوهم وفعل المأمور به من دخول القرية، ثم أرشدهم إلى عُدَّةٍ هي أقوى عدد المقاتل على القتال، وزاد شجاعته، ألا وهي حسن التوكل على الله (ﷻ) قائلين لهم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين به تعالى مصدقين لوعده، فتوكلوا عليه وحده سبحانه؛ ففي التوكل على الله تيسيراً للأمر، وتقوية للقلب، ونصراً على الأعداء^(١).

كما كان التوكل على الله (ﷻ) هو جذوة وقود شجاعة أصحاب رسول الله (ﷺ) لما قال لهم نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس إن أبا سفيان ومن معه يعدون العدة ليكروا عليهم ثانية وجراجاتهم في أحد لما تلتئم بعد؛ فزادهم ذلك إيماناً وقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فوضوا أمرهم إلى ربهم وكافيهم ومتولي أمورهم وحده سبحانه؛ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء^(٢)، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

(١) السعدي، مرجع سابق، ٤١١/٢، ابن كثير، مرجع سابق، ٧٧/٣.

(٢) البغوي، معالم التنزيل، ١٣٩/٢، القرطبي، مرجع سابق، ٢٦٣/٤، الألوسي، روح المعاني، ١٢٦/٤.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١٧٣، ١٧٤.

المطلب الثاني

الشجاعة والتقية في ميزان القرآن الكريم

لعله قد يرد على ذهن القارئ الكريم سؤالاً حاصله: إذا كانت الشجاعة رأس الفضائل كما أسلفنا، وإذا كان الجبن من أخص صفات المنافقين؛ فكيف يمكن التوفيق إذاً بين الآيات الكريمة التي تحت على الشجاعة الأدبية والحريية، وبين الآيات التي تُرخص في التقية، وهل الترخُّص والأخذ بالتقية يُعدُّ نفاقاً؟

وقد أثار الباحث هذا السؤال لعلاقته بموضوع البحث من ناحية، ولما قد يقع في خلد البعض من أن التقية حكم يخص الشيعة الإمامية وحدهم من ناحية أخرى؛ فكان التنبيه على مشروعيتها عند أهل السنة أولاً^(١)، وليبيان علاقتها بالشجاعة ثانياً.

ولتتمام الفائدة: سنبدأ هذا المطلب ببيان معنى التقية، ودليل مشروعيتها بإيجاز، قبل أن نبين علاقتها بالشجاعة بإيجاز كذلك؛ وفي ذلك أقول والله أستعين:

التقية لغة: تعني الحيلة والحذر، والتوقي من الضرر^(٢)، وهي و«التقاة» بمعنى واحد عند المفسرين^(٣)، وهي إما بفتح التاء وكسر القاف وتشديد الياء المفتوحة، «تَقِيَّة» على وزن «فَعِيلَة» مصدر من «تَقِيَ» تقيةً، وإما بضم التاء

(١) على فروق كثيرة بين التقية الشرعية والتقية الشيعية، يمكن التماسها مفصلة عند: علي الحسيني، في دراسته الماتعة الموسومة بـ مبررات التفكير بين تقية الشيعة وتقية الشريعة.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ١٥: ٤٠١، الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٦٨٦، مادة (وَقِيَ).

(٣) الزبيدي، تاج العروس، ١٠/٣٩٦ وقى"، البغوي، معالم التنزيل، ٢/٢٦.

وإسكان القاف وفتح الياء المخففة «نُفْيَةٌ» مصدر انتفى يَنْفِي، انتفاءً، ونُفْيَةً، وقال ابن الأعرابي: النُّفَاة، والنُّفْيَةُ، والنَّقْوَى، والانتقاء، كله واحد^(١).

واصطلاحاً: يعرفها الباحث بـ: «اضطرار المسلم للتظاهر بموافقة العدو في قول أو فعل مخالف للحق الذي يعتقدوه هو ويؤمن به، صيانة لنفسه عن الأذى» وقد عرفها بنحو ذلك جمع من العلماء^(٢).

أما مشروعيتهما: فلقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٣)؛ فقد نهت الآية الكريمة عن مؤالاة الكفار ومداهنتهم، إلا إن كانوا غالبين ظاهرين على المسلمين، فيجوز حينئذ مداراتهم باللسان لا الفعل، مع اطمئنان القلب بالإيمان اتقاء لشركهم ودفعاً لأذاهم، دون أن يستحلَّ - أي من يوافقهم - دماً أو مالاً حراماً، أو أن يعينهم على المسلمين^(٤)، وإقراره (ﷺ) عمار (رضي الله عنه) على ترخيصه وأخذه بها، وقوله (ﷺ) له «إن عادوا فعد»^(٥)؛ وفي عمار (رضي الله عنه) نزلت ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ﴾

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٢٦٦/١٥ (وقي)، الرازي، مختار الصحاح، باب الواو، (وقي)،

محمد رواس قلعه جي، معجم لغة الفقهاء، ص ١٤٠.

(٢) وينظر: السرخسي، المبسوط، ٤٥/٢٤، العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام، ١٠٧/١،

الآلوسي، روح المعاني ١٢١/٣، مرتضى الأنصاري، النقية، ص ٣٧.

(٣) سورة آل عمران: آية ٢٨.

(٤) البغوي، مرجع سابق، ٢٦/٢.

(٥) والحديث بتمامه عند الحاكم في المستدرک، ح ٣٣٨٢، ٣٥٧/٢، والبيهقي في السنن

الكبرى، كتاب المرتد، باب: المكروه على الردة، ح ١٦٩٩٧، ٢٠٨/٨، من رواية مُحَمَّدِ بْنِ

عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ

(ﷺ)، وَذَكَرَ آلَهُتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: =

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١). وبضم هذه الآية الكريمة إلى آية آل عمران السابقة نفهم «أن التقية لا تكون إلا مع الخوف وسلامة النية؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٢).

وفي علاقتها بـ «الشجاعة»؛ يرى الباحث: أن لكل منهما موضع لا يناسب الأخرى؛ فالتقية رخصة استثنائية يُلْجَأُ إليها في حالة الضرورة والإكراه، وهي تتعلق بالفروع لا الأصول، فلا بأس أن يتركها المسلم إذاً ويتشجّع ويأخذ بالعزيمة^(٣)؛ بل إن العلماء قد عدوا الأخذ بالعزيمة مع التضرر أفضل من الأخذ بالتقية مع السلامة^(٤).

= «مَا وَرَأَيْكَ؟» قَالَ: شَرُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُرِكَتُ حَتَّى نَلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ إِلَهُتَهُمْ بِخَيْرٍ، قَالَ: كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ؛ وَقَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وقد أخرج ابن أبي شيبة - في باب ما ذكر عن عمار بن ياسر (رضي الله عنه)، من كتاب الفضائل من مصنفه، ح ٣٢٩٢١، ٢٠٣/١٧، - عن أبي مالك أن آية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ نزلت في عمار (رضي الله عنه).

(١) سورة النحل: آية ١٠٦.

(٢) البغوي، مرجع سابق، ٢٦/٢.

(٣) وذلك خلافاً للشيعة الذين يرونها من أصول الدين، ومن لوازم الاعتقاد، ونسبوا إلى جعفر الصادق (رضي الله عنه) قوله: «أنه لا دين لمن لا تقية له» ينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ٧٥ / ٢.

(٤) قال بذلك: الرزاي، وابن بطلال، وأصحاب أبي حنيفة، وحكى ابن بطال إجماعهم على ذلك، وتنتظر هذه المسألة مفصلة في: علي الحسيني، مرجع سابق، ص ٤٠ - ٤٢.

يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم قد ضيَّق من نطاق استعمال النقيّة؛ حين جعلها مع الكفار لا المسلمين^(١)، ثم إنها مع هذا وذاك إنما تكون بالقول لا الفعل، كما أنها «ليست سجيّة للمسلم في جميع أحواله على أية حال، ولا هي وسيلة لإعزاز الدين؛ لأن إعزاز الدّين يكون بإظهاره على الملأ، وعدم كتمانها»^(٢).

كما يقرر الباحث في هذا المقام:

أولاً: أنه وإن كان في الأخذ بالعزيمة والتمسك بالشجاعة الأدبية إظهار الحق وإعزاز الدين؛ فقد يكون في النقيّة: عصمة الأرواح التي عليها يقوم الدين؛ فإن ترخّص بها مُترخّصٌ؛ فليكن بقدر ما يحفظ به هذه الأرواح المعصومة.

ثانياً: أن الأخذ بالنقيّة قد يختلف حكمه باختلاف حالة الضرورة والإكراه؛ بل وباختلاف المُكرّه أو المُضطر؛ فليس الإمام كأحاد الرعية في ذلك مثلاً؛ لأن الإمام لو ترخّص بها لكانت جنايته على الدين أعظم من ترخص غيره؛ ولعل في النصوص الصحيحة الدالة «تارة» على وجوب الاعتصام بحبل الشجاعة الأدبية حين يتطلب الأمر ذلك، والمُرخّصة «تارة أخرى» في الأخذ بالنقيّة، خير شاهد على ما نقول، ولعله يأتي على رأس تلك النصوص:

(١) فآية النقيّة إنما وردت في سياق الحديث عن الكفّار، ولذا قال قال ابن جرير في تفسيرها: النقيّة التي ذكرها الله في هذه الآية إنّما هي تقيّة من الكفّار لا من غيرهم، وبنحوه قال الرازي في تفسيره، ينظر: الطبري، جامع البيان، ٣١٦/٦، البغوي، معالم التنزيل، ٢٦/٢، الرازي، مفاتيح الغيب، ١٧٠/٤.

(٢) خلافاً للشيعّة الذين يرونها سبيلاً لإعزاز الدين، ينظر: علي الحسني، مرجع سابق،

أولاً: قصة غلام أصحاب الأخدود الذي أخذ بالعزيمة ولم يترخص وآثر القتل إعزازاً للدين^(١).

ثانياً: حالة الاستضعاف التي كان عليها الصحابة في صدر الدعوة، وما نالهم من إيذاء وأذى، وحته (ﷺ) لهم مع ذلك على الاعتصام بحبل الشجاعة ولازمها أعني الصبر، كما بين ذلك حديث خباب بن الارت الذي يقول فيه: «أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَشَكَّوْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ فَجَلَسَ مُحَمَّرًا وَجْهَهُ، فَقَالَ: قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ، فَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ...»^(٢).

ثالثاً: إذنه (ﷺ) لعمار في الترخُّص والأخذ بالنقية؛ بقوله (ﷺ) له «إن عادو فعد»^(٣).

أقول: لعل الروايات السابقة تؤيد ما قرره الباحث هنا من أن الترخُّص بالنقية أو الأخذ بالعزيمة وإظهار الشجاعة يختلف باختلاف كل حالة وما يترتب عليها من نفع وضرر، والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) القصة بتمامها في صحيح مسلم، ك: الزهد والرقائق، باب: قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، ح ٣٠٠٥.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب: في الأسير يكره على الكفر، ح ٢٦٤٩. وبهذا الحديث استدل ابن بطال على أن من أكره على الكفر واختار القتل كان أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة، وحكى إجماعهم على ذلك. ينظر: العظيم آبادي، عون المعبود، ٢٥٠/٦.

(٣) سبق تخريجه في ص ٢٠ من هذا البحث.

المطلب الثالث

منهج القرآن الكريم في التربية على الشجاعة الأدبية

لقد أشرنا في مقدمة هذا البحث إلى أن للقرآن الكريم أسلوبين مهمين في التربية الخلقية بصفة عامة:

أولهما: الأسلوب المباشر: بالأمر الصريح ترغيباً في محاسن الأخلاق، والنهي الصريح ترهيباً من مساوئها.

ثانيهما: الأسلوب غير المباشر: بعرض القصص المحفز على الأخلاق الحسنة والمحذر من مساوئها، وما يتضمنه هذا القصص من دروس عقدية، وأخلاقية، وأحكام تشريعية، وفوائد لغوية، فالقرآن الكريم لم يذكر القصة للتسلية، وإنما للتأسي والاعتداء وأخذ العبرة، ومن ثمَّ نجده يعقب القصة بالدعوة إلى الاعتبار والاعتاظ^(١)، ولعله لما كان هذا الأسلوب غير المباشر في التربية والتهذيب هو الأسلوب الأمثل والأثبت في النفس وجدنا آيات القصص القرآني تشغل ما يقرب من ربع آيات القرآن الكريم كما أسلفنا^(٢).

أما الترغيب في الشجاعة الأدبية فيتجلى في نحو:

١ - أمر الله تعالى المؤمنين بالتحلي بالشجاعة، وأن لا يخافوا في الله لومة لائم: وذلك في عدة مواضع من كتابه الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(٣).

(١) وينظر في ذلك: عبدالرحمن داود عبدالله، منهج القصة القرآنية في ترسيخ الأخلاق، ص

٢٣ وما بعدها، ماجد العصيمي، مرجع سابق، ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) قارن: ص ٣ من هذا البحث.

(٣) سورة المائدة: آية ٥٤.

يعني: أنهم لا يخشون في أمور الدين إلا الله سبحانه؛ فيعملون بموجب أمره ونهيه، فلا يخشون ظلم ظالم؛ ولا ملامة لائم، وذلك يشمل عدم الخشية عند القتال ونحوها، أما الخوف الجبلي فليس من هذا الباب، ولا مما يدخل تحت التكليف والخطاب، كخوف موسى (عليه السلام) المحكي عنه في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾^(١) فإنه من الخوف الجبلي الواقع في دائرة المباح، إلا أنه لما كان مقام النبوة يأبى عليه إلا الاعتصام بأعلى درجات الشجاعة الأدبية والجسدية، ورد النهي بعدها عن هذا المباح الذي لا يدخل تحت دائرة التكليف^(٢)؛ فقال تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾^(٣).

ويدخل في هذا الخوف المباح كذلك قوله تعالى لأم موسى (عليها السلام): ﴿.. فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤) فالخوف في ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾ إشارة إلى الخوف الجبلي المباح الذي لا يدخل تحت دائرة التكليف، وفي ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ نهى عن الخوف الذي يحول بين فعل الأمور به.

ومنها: مدحه تعالى لأنبيائه جميعا بهذا الخلق الرفيع، وأنهم: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا لِلَّهِ﴾^(٥). يعني: أنهم يخافون الله تعالى ولا يخافون أحداً سواه سبحانه؛ فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات ربهم، يقول ابن كثير: وسيد الناس في هذا المقام - بل وفي كل مقام -

(١) سورة طه: آية ٤٥.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ٥١/٤. "بتصرف وتلخيص".

(٣) سورة طه: الآيتان ٤٥، ٤٦.

(٤) سورة القصص: آية ٧.

(٥) سورة الأحزاب: آية ٣٩.

محمد رسول الله (ﷺ)؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه (ﷺ) بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله^(١).

٢- تأسيس القرآن لمبدأ الشجاعة الأدبية في نفوس المؤمنين به منذ باكورة عهدهم بالوحي^(٢) حين أمر الله تعالى نبيه (ﷺ) أن يجهر بالدعوة دون أن يلتفت لاستهزاء مستهزئ، ولا لجهالة جاهل، فقال سبحانه مخاطباً رسوله (ﷺ): ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)؛ فهذه الآية المكية نزلت والدعوة كانت لا تزال في مهدها، تحفها المخاطر، ويحرق بها الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر، وفي هذه الأثناء - كذلك - ومع حالة الاستضعاف والأذى وتسلط سفهاء قريش على المسلمين، ورد حث النبي (ﷺ) للصحابة على الاعتصام بحبل الشجاعة الأدبية، كما أسلفنا في حديث خباب بن الأرت (ﷺ)^(٤). أقول: في هذه الآية المكية ومع حالة الاستضعاف التي كان يعيشها المسلمون، يأمر الله تعالى نبيه (ﷺ) بمواجهة المشركين وإبلاغ ما بعثه الله به وإنفاذه إليهم، وهي تمثل مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية؛ فبعد أن نبتت في خفاء بين أهل النبي (ﷺ) وأصدقائه، ثم كان إنذار العشيرة والأقربين بعد ذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٥) لكن العبادة كانت في خفاء ولا يخرج المؤمنون جهاراً، وكان الإيذاء مع ذلك يتوالى، حتى دخل بعض الأقوياء

(١) ابن كثير، مرجع سابق، ٤٢٨/٦.

(٢) الدكتور إبراهيم خليفة، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٣) سورة الحجر: آية: ٩٤.

(٤) قارن: ص ٢٤ من هذا البحث.

(٥) سورة الشعراء: آية ٢١٤.

بأشخاصهم ونسبهم كحمزة والفاروق (رضي الله عنهما) فكان الأمر في هذه الآية بالمجاهرة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: اجهر بالحق الذي أمرت به، وشق به ظلام الجاهلية، كما يشق الفجر بنوره ظلمة الليل ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تلتفت إليهم، ولا تبال بهم، وأعرض عنهم، ولا تحسب أن مما لآتهم تدنيهم، إنما يدينهم الجهر بالحق مع الموعظة الحسنة من غير جفوة، ولا إذهان^(١).

٣- مَنْحُ الْقُرْآنِ خُصُومَهُ حَقَّ الْجَهْرِ بِمَا يَعْتَقِدُونَ؛ وَمَنْعُ أَتْبَاعِهِ مِنْ كِبْتِ هَذَا الْحَقِّ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِ: فقال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾^(٢)؛ لئلا يضطر هذا العدو إلى أن يظهر من العقيدة خلاف ما يبطن؛ فيفتش في المجتمع داء النفاق والجنون الأدبي المشين لصاحبه، والهاوي به إلى أحط دركات الرذيلة؛ والموجب له أحط وأشد أنواع العذاب.

ولعل كثرة اللغط المفتعل حول الآية الكريمة السابقة يفرض على الباحث أن يبسط الكلام فيها بسطاً غير ممل، لخصت معظمه من كلام نفيس للإمام محمد بن أبي زهرة (رحمته الله) فأقول والله أستعين:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾ جملتان تنفي أولاهما الإكراه في الدين، وتبين ثانيتهما علة هذا النفي.

أما النفي الذي قررته الجملة الأولى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فيتضمن:

«أولاً»: تقرير حقيقة ثابتة، وهي أن التدين إدراك فكري، وإذعان قلبي، واتجاه بالنفس والجوارح بإرادة مختارة حرة إلى الله (سبحانه)، وتلك معان لا يتصور فيها الإكراه؛ إذ الإكراه حمل الشخص على ما يكره بقوة ملجئة مفسدة للإرادة الحرة، ومزيلة للاختيار الكامل.

(١) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٤١٦/٨.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

«ثانياً»: النهي عن وقوع الإكراه؛ إذ الإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر؛ لأنه كلما حُمِلَ الإنسان على أمر بالقوة ازداد كرها له ونفوراً منه.

ثم جاءت الجملة الثانية ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾: لتبين أن أقصى ما يُكَلَّفُ به الداعي إلى الحق هو بيان الرشد من الغي، وأنه غير مكلف بحمل الناس على الهدى، فإذا كان الرشد قد تبين من الغي وتميز، وخرج نيراً واضحاً كما يخرج النور من الظلمة عند انبثاق فجر الحقيقة؛ فعلى كل طالب للدين أن يسلك سبيل الحق الواضح البين، ومن بقي متردداً في الباطل، فعليه إثم بقائه، وما على الداعي من أمره شيء.

ومن ثم كانت ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ كالتعليل لنفي الإكراه والنهي عنه، لأنه إذا عُرِفَ الحق معرفة مثبتة له بالأدلة القاطعة، وعُرِفَ الباطل معرفة مبينة وجه الضلال فيه، فقد توافر سبب التدين، ومن كفر بعد ذلك فعن بينة كَفَرَ، ولا سبيل لهدايته؛ فليتحمل شؤم كفره بعد هذه البينات الواضحة الكاشفة .

أما دعوى نسخ هذه الآية الكريمة: بآيات الجهاد التي ورد في بعضها أمرٌ بالغلظة مع المشركين، نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾^(١)، وفي البعض الآخر جُعِلَ الإسلام غاية القتال، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾^(٢)، فالحق: أن الحكم الذي قرره هذه الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ماض إلى يوم القيامة؛ لاسيما إن ضممننا إليها ما يزيكها

(١) سورة التوبة: آية ١٢٣.

(٢) سورة الفتح: آية ١٦.

من آيات أخرى نحو قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وما أسلفناه أعلاه من تأييدها لحقيقة ثابتة وهي أن التدين والإكراه على الدين نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر.

بل إن آيات القتال تقرر طرفاً من تلك الحقيقة، حين صرحت أن الباعث على القتال هو منع الاعتداء والفتنة في الدين، أما منع الاعتداء ففي نحو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢)، وأما منع الفتنة في الدين، في نحو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣).

ومن ثم: كان الأوفق هنا هو حمل الآيات الآمرة بالجهاد على حال الاعتداء، أو التحفّز للاعتداء - أعني تحفز المشركين للاعتداء على المسلمين - إذ لا يسوغ لمؤمن أن ينتظر حتى يُغزى؛ فإنه ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، وفي ذلك ما فيه من فتنة للمسلمين في دينهم.

أقول: إن الأوفق هنا هو حمل آيات الجهاد على حال الاعتداء، أو التحفّز له من الأعداء، لا سيما إن ضمنا إلى ذلك ما وثقه التاريخ من حياة النبي (ﷺ) وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم، والتي تنبئ عن منع الإكراه في الدين، وتبرز أخلاقيات الحرب عند المسلمين التي تحفظ الحرث والنسل، مع ما سجله التاريخ من إهلاك أعدائهم للحرث والنسل وتخريب البلاد وقتل العباد.

(١) سورة يونس: آية ٩٩.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٠.

(٣) سورة الأنفال: آية ٣٩.

يضاف إلى هذا وذاك: أن ادعاء النسخ هنا لا دليل عليه، كما أنه لا يصار إلى النسخ إلا مع عدم إمكان التوفيق بين الآيتين، فلو أمكن التوفيق ولو بتخصيص إحدى الآيتين لوجب السير إلى التخصيص دون النسخ؛ والتوفيق ممكن هنا بين آيات القتال وهذه الآية الكريمة، بل إن شئت الحق فقل إنه لا تعارض حتى تكون ثمة محاولة للتوفيق، فما كان القتال لحمل الناس على الإسلام، بل كان القتال لدفع الاعتداء أولاً، ولكي يخلو الوجه للدعوة الإسلامية ثانياً، ولتكون كلمة الحق هي العليا ثالثاً، والناس في كل الأحوال بعد ذلك أحرار فيما يعتقدون وما يؤمنون به؛ وقد صدق ربنا سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١).

فإن ضمنا إلى هذا وذاك: ما روي في سبب نزول الآية: من أن رجلاً من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً، فقال للنبي (ﷺ): ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فنزلت الآية^(٢) تقرر ما أسلفناه أعلاه^(٣).

٤- ترسيخ القرآن الكريم مبدأ الشجاعة الأدبية في عقيدة أوليائه: «حتى ولو كان ذلك على حساب عواطفهم وعواطف أقرب المقربين إليهم: فالآباء والأبناء والإخوة والعشيرة أولى الناس بخالص ود الإنسان، ولكن أولئك جميعاً لو عادوا الله ورسوله وأصبح القلب في خيار صعب بين إخلاص ودهم وبين إخلاص الود لله ورسوله؛ فعليه أن يعتصم حينئذ بخلق الشجاعة الأدبية، ويجعل الله ورسوله أكبر

(١) سورة القصص: آية ٥٦.

(٢) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ٤٩٦/٢، الطبري، مرجع سابق، ٤٠٩/٥،

الشنقيطي، أضواء البيان، ٢٢٧/٩.

(٣) أبو زهرة، مرجع سابق، ٩٤٣/٢ - ٩٥١ بتصرف وتلخيص وتقديم وتأخير.